

المحاضرة الثانية

طبيعة التنظير الروائي

يعود الاهتمام بالتنظير الروائي الى المكانة الهامة التي تبوأتها الرواية في ظل التحولات الحضارية الكبرى ن مما جدد الاهتمام بالفن و بالأشكال الأدبية لتصبح مجالاً للتفكير في الانسان في مقابل التفكير التاريخي العام .
ان بروز الرواية بعد اكتشاف 'دانتى ' و 'سرفانتس' و 'رابليه' سيطبع سيرورة التفكير الأدبي بمحاولة اكتشاف ذاته وغاياته و علاقاته من خلال الجهود الفلسفية و النقدية التي ستسعى الى ملاحقة التغييرات المجتمعية و التنظير لمسارات أشكال التعبير عنها وأهمها الرواية .

والتنظير الروائي قضية نسبية وتأتي نسبية تنظير الرواية انطلاقاً من فكرة أن هذا التنظير يبينه الأدباء و المفكرون كل حسب منطلق يراه مساعداً على الاجابة عن أسئلة معينة - تدور في محيط اجتماعي معين - عن أفكار و معارف عامة تشكل الاطار الفكري و الحضاري العام للمجتمع .

ومع هذا فان هناك عناصر مشتركة تؤسس للنص الروائي وتمكن من وصفه و استخلاص دلالاته مع التأكيد على خصوصية هذا النص وهذه الخصوصية تثري التنظير وتساهم في اضاءته

يتمثل الحقل النظري الذي نشأت فيه نظرية الرواية - وبصفة الجمع - أنها صدرت عن مقاربات فلسفية أو نظريات مسكونة بفكرة النسق الفلسفي الذي ينزع الى تأويل الظواهر الاجتماعية المختلفة ، الأمر الذي يجعل قراءة الممارسة الروائية مستوى نظرياً من الممارسات الأخرى .
والحقل التطبيقي بالنسبة لنظرية الرواية - باستثناء أعمال 'باختين' - لا يقصد النص الأدبي لذاته اذ لا يبنى قوله على قراءة تبدأ بالنص الروائي وتنتهي به بل يطبق عليه قولاً نظرياً سابقاً عليه فيبدو النص وكأنه لا يقصد لذاته بل يشكل موقفاً لقراءة النظرية واثبات امكانياتها ، فالنظرية لا تكون نسقاً إلا بالبرهنة على قدرتها في معالجة الظواهر المختلفة ، ولذا رأيناها تذهب الى النص مثلما تذهب الى مجالات أخرى .

وانطلاق النظرية من فكرة النسق لا من خصوصية الجنس الروائي هو ما يشد نظريات الرواية الى الفلسفات الجمالية أكثر من النقد الأدبي ، ولهذا فان هذه النظريات تقرأ الدلالة الفكرية والتاريخية للرواية قبل أن تقرأ العلاقات الداخلية التي تبني الممارسة الروائية

ولذا أصبحت الرواية ملتقى الجهود الفلسفية المنشغلة برصد التغيرات الاجتماعية المتسارعة وتنظير أشكال التعبير عنها ، مما جعل خطاب الرواية متفاعلا مع بقية الخطابات ضمن السياق الحضاري الجديد

والحديث عن تاريخ نظريات الرواية يقود الباحث الى ادراك المفاهيم الموجهة لكتاب الرواية و سياقات و آداب مختلفة.

تبلورت نظرية الرواية وبرزت الى الوجود بفضل ارتباط الرواية بالمجتمع لانها تعتبر تشكيل سردي له خصوصيته الزمنية النابعة من بناء المجتمع الرأسمالي وما يتسم به من بنية اقتصادية و مجتمعية وقومية وأساسا لرؤية ثقافية جديدة أي نضج الوعي العقلاني و العلمي الموضوعي على حساب الفكر الأسطوري القبلي اللاعقلاني من جهة و بروز الوعي الفردي للمجتمع التاريخي الانساني الشامل على حساب الفكر القبلي الاقطاعي والعائلي الضيق من جهة أخرى ، هذا الوعي التاريخي الانساني الشامل هو أبرز مظاهر الوعي العقلاني العلمي الحديث حيث اصبحت المعرفة التاريخية للأشياء والظواهر والأحداث و الوقائع واللغات والأفكار معرفة موضوعية شاملة وهذه المعرفة التاريخية تشكل عاملا أساسيا من عوامل تشكيل البنية الروائية وترسيخ زمنيها و تعميقها و تجديدها بفضل الانفصال و التمايز بين التاريخ المتخيل و التاريخ الموضوعي .

الرواية تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي، وقد يكون هذا التاريخ تاريخا جزئيا أو عاما ذاتيا أو مجتمعيا وقد يكون تاريخا لشخص أو لحدث أو لموقف أو للحظة تحول اجتماعي.

ورغم الاختلاف في الطبيعة البنيوية بين المتخيل و الموضوعي فان بين الزمنيين و التاريخيين علاقة ضرورية هي علاقة التفاعل ، فالرواية هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة الاجتماعية والحياتية و الثقافية ، وهي ثمرة بلغة التخيل لا بلغة الاستنساخ و الانعكاس المباشر و التسجيل ، فهي تعبير ابداعي صادر من موقع و موقف و ممارسة و خبرة حية و ثقافة في قلب هذه البنية الواقعية وهي اضافة لهذا الواقع تعبر عنه و تنفعل به وتتجاوزه في آن لأنها تاريخه الوجداني و الابداعي ذو البنية الخاصة النابعة من خبرة حميمة فيه ، و هكذا ترتبط بنية الخطاب الروائي ببنية الخطاب الموضوعي وتختلف طبيعتها باختلاف كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ .

بهذه الخاصية تصبح الرواية لا مجرد سرد أدبي للتاريخ الموضوعي بل تمثل كذلك التاريخ العمقي الذي يكشف ما يدور بين الأفراد و الجماعات و الطبقات و الأحداث و الوقائع من مشاعر و أفكار وإيديولوجيات و قيم و مواقف و صراعات وعن مراحل واكتشافات علمية وشروط نفسية واجتماعية و قومية

يرى الناقد 'ميلان كونديرا' ان ادراك مفهوم الرواية يعتمد على تأويل تاريخهافهو يرى أن اللحظة الحاسمة في نشأة الرواية و تاريخ تطورها - مع مطلع الأزمنة الحديثة - تتمثل في بناء الانسان و كينونته التي أدت الى انفصال الانسان عن ذاته غداة انغماس أوروبا في بناء حداثتها المبنية على العقلانية الديكارتية .

من هنا نؤكد على نسبية تنظير الرواية بوصفه تنظيرا يبينه مفكرون و أدباء انطلاقا من اسئلة تحاور ثقافة معينة مع دوائر معرفية توفر البنية الفكرية و المجتمعية .

فالرواية لا تتحدد بسماتها الشكلية بقدر ما تتحدد بمدلولاتها المرتبطة عادة بفكرة المتخيل ، فهي لا تخضع للقواعد الكتابية التي تختص بها بل بالموضوعات المطروحة التي تحدد كينونتها كجنس ، فهي تسرد مغامرات وهمية و ترسم شخصيات حقيقية و تنسج حبات متخيلة مما يجعل خطابها في صميم الواقع.

وقد شغلت نظرية الرواية حيزا كبيرا من كتابات الفلاسفة و النقاد و المنظرين و المبدعين و ارتبطت مكانتها ب بروز أشكال التعبير الروائي متبلورة مع التحولات الفكرية و العلمية و الحضارية للمجتمع ، وأدى هذا الى اهتمام الفلاسفة بجمال أشكال تعبيرها الفنية و الأدبية و اتخاذها كمنظور جديد للتفكير في قضايا الانسان من من منظور يختلف عن منظور تحليل التاريخ العام وتنظيره .